كلام في التربية[1]

ايها المحفل الكريم

اذا جريت على عادة خطبائنا المألوفة جعلت مقدمة خطابي الشكر والاعتذار — الشكر للحضور والاعتذار عن القصور

اما الشكر فواجب آخذُ بهِ واقدمهُ عن طيبة خاطر اولاً لمن ظنوا بي حسنًا فدعوني للخطابة في هذه الحفلة الوقورة وثانيًا لمن تكرموا بالحضور للاستماع

واما الاعتذار عن القصور وعدم الاهلية وما جرى مجراها فاني احسبهُ مظهرًا من مظاهر المداهنة يأخذ بهِ الخطيب افتخارًا لا اعتذارًا واذ ذاك فاني اعدل عنهُ الى الالتماس من كل كريم مستمع ان ينبهني في النهاية الى كل ما عاير منتكرهُ في كلامي فان في ذلك ازدياد التفاهم وتبادل الفوائد

ايها السادة والسيدات

حول مدينتكم الزاهرة صيداء بقعة غبياء لانكاد العين تأخذ اطرافها . جنائن ناضرة وبساتين عامرة يتعهدها اصحابها فيستونها ويحرثونها ويهذبونها ويسمدونها ويستأصلون منها مايضر ويدخلون عليها ما ينفع وبذلك كلهِ يتسنى لهم ان يستغلوها ويجنوا اثمارها المشهورة كالبرتقال والتمش والموز والرمان وغيرها

سقي وحرث وتسميد وتهذيب واستغلال — كل ذلك من مقتضيات التربية في عالم النبات والناظر الى الشجرة الكبيرة ينسى انها كانت بادئ بدء بزرة صغيرة لا قيمة لها حسب الظاهر مع ان في طيها جوهر الشجرة وهيئتها ونسب اجزائها بعضها الى بعض وهي لم تصل الى ماوصلت اليهِ من النمو والتكامل الاَّ بعد ان تمكنت من التربة وتعرضت لفعل الماء والشمس والهواء . والانسان ايها السادة مثل الشجرة يولد طفلاً لا عقل لهُ حسب الظاهر ولا ادراك انما في طيات دماغهِ الصغير قد اودع جوهر الرجل الكبير بقواهُ واميالهِ التي تتجلى في مدى الحياة وهذه القوى والاميال قابلة الارتقاء وارتقاؤها يسير على نظام محدود بحسب ما تعرض لهُ من احوال التربية الموافقة او غير الموافقة

والغريب ان الواحد منا يربي بستانهُ ويربي فرسهُ لكنهُ قد يغفل تربية اولادهِ وهم اثمن

(١) خطبة تليت في احتفال مدرستي الصبيان والبنات الاميركيتين في صيدا

شيء عنده واعز ملك لديه . يختار ابرع بستاني فيسلم اليه ادارة بستانه ولكنه قد يسلم ادارة بيته الى امرأة لا تحسن ادارة ويلقي تربية اولاده الى مرضع او الى مربية لا تعرف عن التربية القويمة شيئاً. هذا ما حداني الى الكلام عن التربية في هذه الليلة — التربية التي يعتمدها اهل التهذيب في البيوت والمدارس

والموضوع يا سادتي اوسع من ان يلم باطرافه باحث واعمق من ان يسبر غوره منتقص ولكن ما لا يدرك جله لا يترك كله وعلى هذا فاني قد طويت في خطابي بعض ما اجمع عليه مدبرو التهذيب من اوجه التربية المفلحة التي تتناول طبائع الانسان الجسدية والعقلية والادبية

كان الناس يعتقدون ان الانسان هو المخلوق العظيم الذي من اجله تشرق الشمس ويطلع القمر والنجوم وتهطل الامطار وتنبت الارض اما اليوم فقد زال هذا المعتقد وعرف الانسان انه من خلائق الله العاقلة خلقه الله في الطبيعة ليفهمها ويدرس يد الله فيها ويدرك نواميسها وتواها ويستخدمها لمنفعته

عرف ان الطبيعة عادلة في احكامها واعمالها لا تحابي بالوجوه ولا تترك الزلات بل تجازي كل واحد حسب اعماله سواء كان المالك او المملوك الكبير او الصغير

عرف ان نواميس الخالق تقرأ في كتاب الطبيعة كما تقرأ في كتاب الوحي وانها ثابتة في الكتابين لا تغيرها اراء الناس واحوالهم فالنار تحرق والجاذبية توقع وتغرق كما ان الخطيئة تؤذي والشر يضر

عرف ان التربية القويمة هي التي توفق بين الانسان والطبيعة وتجعل الانسان العاقل يحتال في صحبة الطبيعة غير العاقلة فيجتنب اذاها وينتفع بقواها

وقف على الراي القديم ان الفرد هو لا شيء بالنسبة الى الجماعة وان كل مصالحه وقواه واملاكه ينبغي ان تضحى لاجل مصلحة الجموع وقيام الهيئة التي هو فيها وقابله بالراي الحديث الذي رن في شوارع باريس سنة ١٧٩٤ وهو ان كل فرد هو المتصرف المطلق بنفسه وحظوظه يتمتع بالحرية التي يريدها ولا يحق لاحد ان يعترضه . ثم وفق بين الرايين واختار اوسط الطرفين وقال ان الحياة القويمة هي التي تعتبر فيها حياة الفرد جزءاً من حياة الجمهور

رأى الناس في العصور الخوالي وتتبع سيرهم في العصور المظلمة وراقب نهضتهم في العصور الحديثة . راقب هبة العلم وتغلبه على الاوهام . راقب المرؤوس يطالب بحقوقه الرئيس . راقب قيام دولة وسقوط اخرى ورافق الدول الحديثة في سيرها يبحث عن دواعي تقدمها

نعم رأى كل ذلك وحكم ان عمران البلاد ليس الا مظهراً مجملاً للتربية التي تعتمدها تلك

البلاد وخير التربيات ما كان قائماً على اسس العلم مدعوماً بعمد العمل وهذا ما نسميهِ بالتربية المفلحة

كيف يربى الولد في البيت ؟ كيف يربى في المدرسة حتى اذا خرج الى العالم لينشئ بيتاً مستقلاً او يتعاطى عملاً ما عرف كيف يتصرف التصرف الحسن الذي يعود عليهِ بالفلاح ؟ هذا سؤال لا يجيب عليهِ المسأول المدقق ما لم يسأل ما هي الغاية من التربية لان الوسائط تتوقف على الغاية

فاذا شئت ان تربي ابنك على الفروسة وحب الغزو والنهب والمعيشة الاستقلالية كما يتربى اهل البادية فلذلك طرق ووسائط

واذا شئت ان تنشئهُ على حب التنسك والزهد في الدنيا والانقطاع عن الناس للتقشف والتبتل فان لذلك وسائط ايضاً

واذا شئت ان تنشئهُ على التعصب في الدين فتبغضهُ الى غيرهِ ممن ليس على دينهِ وتضيق عقلهُ حتى لا يرى الفضل الا في دينهِ وتابعيهِ فان لك وسائط لذلك

واذا شئت ان تربيهُ على حب العظمة والجاه والفخفخة في اللباس ومظاهر الزينة والحلى والافتخار بالحسب والنسب والتكبر على الغير فان لك وسائط لذلك ايضاً

واذا شئت ان تربيهُ على فهم نفسهِ وادراك ماحولهُ وتغذيهُ بالمعارف والاختبارات التي تحملها طبيعتهُ وتدربهُ على اكرام غيرهِ والمحافظة على حقوقهم وتنشئهُ على حب الفضيلة وكره الرذيلة والتمسك بالصدق في اقوالهِ واعمالهِ والطاعة للخالق وخدمة المخلوق فان لك وسائط لهذا ايضاً

والخلاصة ان الغاية من التربية هي ما يختلف فيهِ الناس وبذلك تختلف وسائطهم واختلاف الغايات نتيجة اختلاف الطبائع ومقتضيات الاحوال

سهل ايها السادة على الغربي الذي يأتي بلادنا ويجول بين اهلها ويرى تباغضهم الطائفي وتعصبهم المذهبي وتلاعبهم في معاملاتهم ان يحكم عليهم بفساد التربية . سهل عليهِ ان يلطخهم بالكذب والمداهنة وعدم الدقة في اعمالهم . سهل عليهِ ان يقول ما يشاء ويشاؤهُ تسرعهُ بالحكم لانهُ لم يدرس طبيعة البلاد ولم يقف على تاريخ اهلها فيما مضى ولو فعل ذلك لابرم حكمهُ على اسلوب بعض ما يقال عنهُ انهُ دقيق محكم . فسورية التعيسة ساحة القلاقل السياسية ومعترك الحروب الدولية ومقر الاختلافات الطائفية ومعرض الفتن الاهلية هي التي ولدت اولادها وربتهم على حب التعصب والتشيع فحكم عليهم الغربي بما حكم

اما سورية السعيدة فهي الارض الممتدة من حلب شمالاً الى عريش مصر جنوباً الى الصحراء شرقاً . جبال شامخة ومهول واسعة . انهر واودية . حراج وجنائن . جوٌ صاف وشمس مطهرة هي الارض التي تفيض لبناً وعسلاً

هذه سورية السعيدة بسمائها ومائها وهوائها لا بسكانها هبت عليها نفحة من التمدن الغربي والقت فيها مع ما القت بزوراً من اثمار التربية الحديثة فنبتت وكبرت واخذت تثمر من سنة الى سنة حتى ظننا ان العمران قد زحف الينا بخيلهِ ورجلهِ وانهُ لا يطول على سورية الزمان حتى نراها بفضل التربية الحديثة زاهية زاهرة . على ان هذا الظن ما لبث ان تحول الى شك عندما شاهدنا ان سوق هذه التربية لا تروج في سورية وان ابناءها مضطرون الى السعي وراء رزقهم حيثما تنسموهُ وهكذا باتت سورية وكثير من خيرة ابنائها بعيد عنها في مصر والسودان واميركا واستراليا . افتنقم من التربية الحديثة لانها حملت البنين على هجر الوالدة ام نلقي اللوم على الوالدة لانها لم تحسن القيام على البنين ؟ هذا سؤال يتعذَّر الجواب عليهِ فاتركهُ لكم واسأل ما هي التربية التي تعوزنا اذاً ؟ ما هي التربية التي اذا اعتمدناها نحن نخطو في سبيل الفلاح سواء عشنا في سورية او غيرها ؟ وعلى هذا اجيب

للتربية ثلاث وجهات وجهة جسدية ووجهة عقلية ووجهة ادبية او اجتماعية ففي الوجهة الجسدية يتدرَّب الانسان منذ الصغر على الاعتناء بجسمهِ وصحتهِ . هذا الجسد الغريب الصنع والتركيب اثمن ما يملكهُ الانسان على هذه الارض وقد لا يملك شيئاً سواهُ ومع ذلك فانهُ كثيراً ما يتصرف بهِ تصرفاً يضرهُ . من اين الاوجاع والآلام والامراض والعلل الجسدية على اختلافها ؟ اليست من جهل الانسان وتماديهِ بامور تضريهِ ؟

وعليهِ فانَّ من اول واجبات الانسان ان يتربى على معرفة المحافظة على جسدهِ وصحتهِ ويتعود العوائد التي تكفل لهُ حسن الصحة والتمتع بمحاسن الطبيعة وجمالها

نسمع بالحرب وفظائعها وقتلاها فنستكبرها ونقدح فيمن سببوها ولكن ليكن معلوماً ان عدد الذين يقتلون نفوسهم اضعاف اضعاف الذين يقتلهم الناس ولا اعني بقتل النفس الانتحار بل عمل ما يسبب الموت جهلاً لنتيجة العمل

وهنا نرجع الى الطفولة مغرس العوائد والاكتسابات ونقول ان من واجبات الام ان تعرف كيف تربي الاطفال ليشبوا اقوياء البنية ميالين للحركة والرياضة الجسدية . والام التي تنهى ابنها عن كثرة اللعب خوفاً عليهِ من المرض او من ان يقع ويكسر يدهُ هي ام تجهل اسباب المرض وكسر اليد والاب الذي يكون في البيت ويرى اولادهُ يلعبون ويضجون ويزعم

ان هذا مما يحط من هيبتهِ كاب فيصرخ بهم بلهجتهِ العنيفة ليسكتوا هو اب يجهل معنى الابوة

قال احد علماء التربية ان كلمة اهدأ يجب ان لا تقال للولد والمعنى انهُ اذا كان الولد يلعب او يلهو بشيء ما فهو يفعل ذلك مدفوعاً بطبيعتهِ التي من قوامها ان تطلب اللعب والحركة الكثيرة وهدوؤهُ ينبغي ان يتسبب من الداخل من اكتفاء تلك الطبيعة بمقدار الحركة لا من الخارج من شخص متسلط على الولد ينهاهُ عن اللعب لانهُ لا يشعر معهُ بلزومهِ

مشهد ايها السادة من مشاهد التربية الجسدية

في الصيف الماضي قصدت عبيه لزيارة رئيس المدرسة الكلية فقيل لي انهُ خرج مع عائلتهِ للنزهة على عدوة واد قريب فتبعتهُ على الاثر واذا هو وامرأتهُ واولادهُ مشمرون عن سواعدهم ويد كلٍ عصا طويلة يستعين بها على هبوط الوادي . فانضممت اليهم ومشينا معاً حتى بلغنا محلاً مشرفاً على ما حولهُ فجلسنا نستريح وكان هناك شجرة باسقة لا يزيد قطر بدنها عن عشرة قراريط فعمد اليها ابن الرئيس وهو في الخامسة من عمرهِ وطوقها بذراعيهِ واخذ يتسلقها وابواهُ ينشطانهِ الى ذلك غير مبالين بالهوة التي تحت الشجرة حتى تعب فنزل وقامت اختهُ وهي اكبر منهُ وحاولت ان تتسلق الشجرة مثلهُ فلم تستطع ثم قامت اختهُ الثانية فحاولت الطلوع وفازت فصفقوا لها استحساناً

رأيت هذا المنظر فقلت في نفسي من هو الوالد الشرقي او من هي الوالدة الشرقية اللذان يريان اولادهما يتسلقان الاشجار فينشطانهم الى ذلك لتقوى اعصابهم وتنفتل عضلاتهم. هذا سر من اسرار تقدم الامم الكسونية سر تربية الصغار وتنشئتهم على الاعمال التي تقوي ابدانهم وعقولهم وتجعلهم يميلون الى الاستقلال منذ الصغر

نحن لانتظر من الجيل القديم الاَّ ان يبقى على قدميهِ اما من هذا الجيل فاننا ننتظر الاصلاح من بني التربية الحديثة وبناتها منكم انتم ايها الفتيان والفتيات نتوقع اصلاح البلاد باصلاح التربية فيها

ومع تربية الجسد ينبغي ان يربى العقل فكما ان الجسد يستلزم الغذاء والحركة الذاتية لنموهِ وصحتهِ هكذا العقل يستلزمهما ايضاً. وغذاء العقل ما يلقى اليهِ من المعارف والاختبارات من القصص والحكايات من اجوبة الاسئلة التي يوجهها الولد الى مربيهِ وتربيتهُ يتم بان يسال عما تعلم وعما يجيب على هذا السؤال وتلك القضية وما شاكل ذلك من التمارين العقلية

ولا يمكنني ان اطيل الكلام في هذا. انما خلاصة ما اقولهُ ان غذاء العقل كغذاء الجسم ينبغي ان يكون معتدلاً قابلاً للهضم والتمثيل. وما مثل الذي يكلف الصغير حفظ مالا

تحملهُ طبيعتهُ الاَّ مثل من يقدم اللوزة للطفل الصغير و ينتظر منهُ ان يأكل لبها فيضعها في فمهِ ويبلها بريقهِ ثم يبصقها الى الارض ولو قدمت تلك اللوزة الى ولد اكبر لعرف كيف يستخرج لبها وتلذذ بأكلهِ

هل تتصورون ايها السادة ان من الناس من يحشو معدتهُ بالمواد العسرة الهضم ويبقى سالمًا ؟ هل رأيتم ولدًا يطعم ما يكره على ابتلاعهِ دون ان يمرض

ولكن هل رأيتم معلمًا يحشو ذاكرة تلاميذهِ بالفاظ وعبارات لا يفقهون لها معنًى دون ان تثقل رغبتهم في الدرس ؟ هل رأيتم معلمًا يرسم اعمال الحساب على اللوح الاسود ثم ينقلها الى دماغ التلميذ بضربهِ على يديهِ او قدميهِ . لماذا يجرُّ بعض الاولاد جرًّا الى المدرسة ؟ ممَّ يخافون وماذا يكرهون ؟ اتخافون الجلوس على المقعد وفتح الكراسة ذات الصور ؟ أيكرهون القراءة والكتابة ام يخافون المعلم وقضيب الرمان ويكرهون الكف وفرك الآذان ؟

من منا يسلم ادارة بستانهِ الى بستاني غير خبير ؟ ولكن كم هم الذين يسلمون اولادهم الى معلم لا يعرف من التربية الاَّ اطرافها يستقرئ الولد او يستكتبهُ فاذا جاء بالمطلوب فبهِ والاَّ ضربهُ فكأن التعليم يتال بالضرب وقسر الارادة لا بفهم طبيعة التلميذ واستخدام الطرق المناسبة لها

نسمع التلامذة عادة يشكون من صعوبة اللغة العربية ولا يميلون الى درسها والذنب في ذلك ليس على اللغة بل على المؤلف اولاً وعلى المعلم ثانيًا لان تآليفنا اللغوية عبارة عن مجموعة قواعد للاستظهار معظمها تافه ويزيد المعلم طينتها بلة بانهُ يجري عليها حرفًا حرفًا على منوال واحد فكأنهُ ينسى ان مطالب هذا العصر غير مطالب العصور السالفة ودخول اللغات الاجنبية زاحم لغتنا وتركها في مقام حرج في المدارس العالية

فمن لنا بمدرسين يتخذون صناعة التدريس لا لسهولتها بل لسموها وما يترتب على اتقانها من التأثير البليغ في عقول التلامذة واخلاقهم واذ ذاك فلا يكتفون بالنسج على المنوال القديم بل ينصبون على درس اصول التربية واساليبها القديمة والحديثة ويجعلون همهم الاول فهم طبيعة التلميذ ودرس اخلاقهِ وامياله وملاحظة نموهِ في القوى العقلية ثم يستخدمون الاساليب التي توافق تلك الطبيعة وتزيد التلميذ رغبة في الدرس والاستفادة

ليعلم المعلم انهُ هو طباخ التلاميذ يطبخ لهم الطعام العقلي ويقدمهُ اما رديئًا يعسر هضمهُ ويؤلم واما جيدًا يلذ طعمهُ و يغذي واذ ذاك فمن واجباتهِ ان ينوّع مطبوخاتهِ ويناولها كميات تناسب سن التلميذ وذوقهُ ومقدرتهُ على الهضم والتمثيل . وكما ان الجسم لا يكتفي بالغذاء بل يطلب معهُ الحركة والتمرين هكذا على المعلم ايضًا ان يحرّك دماغ التلميذ باسئلتهِ ويمرنهُ على

الافتكار والاستنتاج العقلي وتمييز الصحيح من الغلط . هذا ما ينبغي على المعلم ان يتوخاهُ وهذا هو مرمى التربية العقلية

اما التربية الاجتماعية فهي من اوجه شتى اهم من غيرها . كيف نعيش . قال سبنسر ليس السؤال المهم لنا كيف نعيش بالمعنى المادي بل باوسع معنى كيف نعامل الجسد ؟ كيف نعامل العقل ؟ كيف ندير اعمالنا ؟ كيف نربي العائلة ؟ كيف نسلك كمدنيين ؟ كيف نستخدم مصادر السعادة التي تجهزها لنا الطبيعة ؟ كيف نستعمل قوانا كلها لمنفعتنا ومنفعة الغير ؟ وبعبارة اخرى كيف نستكمل المعيشة ؟ اسئلة كثيرة يرد جوابها هربرت الفيلسوف الالماني بقولهِ « ان الغاية من التربية بيان القوى الادبية في الانسان » هنا ملتقى التربية البيتية والمدرسية استكمال المعيشة باستكمال القوى الادبية

وعليهِ فسواء تربّى الفرد ليكون صانعاً او تاجراً او زارعاً او جندياً او حاكماً او غير ذلك فليتربَّ على الرجولة الحقة ولتكن هذه مركزاً تدور عليهِ علومهُ وصنعتهُ ومعاملاتهُ مهما كانت والرجولة الحقة صورة كمالية اساسها معرفة النفس ونسبتها الى الخالق والمخلوق واتصافها بالصفات الحسنى التي تصدر عنها الحكمة في الاقوال والافعال . الرجولة الحقة حياة منظمة تنقضي ساعاتها في العمل المفيد . هي حلقة من سلسلة الوجود النافع تتصل بغيرها فتقرّب الانسانية المتحدة من نقطة الكمال

فاليكم ايها المربون كباراً وصغاراً اوجه كلماتي الاخيرة . انتم مدبرو المعيشة وقادة العقول . انتم مصلحو الجنس وخدمة الانسانية فلا تستصغروا مهنتكم الشريفة بل ثقوا بافضليتها وتناولوا الذين تربونهم بيد الحكمة والتعقل غير ناظرين الى الولد الصغير بل الى الرجل الكبير الذي سيكون منهُ

عوّدوا الذين تربونهم الاعتناء باجسامهم واكتساب العادات التي تكفل لهم حسن الصحة . وربوهم على الاعتدال في المآكل والمشارب على الرياضة في الهواء النقي على حب العمل وكره البطالة

ربوهم على احترام الامهات والاخوات واشربوهم منذ الصغر معنى المثل العربي المأثور ان « كل ذات صدار خالة »

ليترفع كلٌّ منّا عن سماع القصص السافلة التي تغض من قدر المرأة وليثب على احترامها وحسن الظن بها

وانتم ايها الاباء والامهات ربوا اولادكم على عدم التعصب الديني . هذا هو الداء الذي تئن

منهُ سورية وهذا علة تأخرها . هذا هو بلية بيروت زهرة المدن السورية . فما اجهلك ايها المسلم الذي تقوم على اخيك المسيحي . وما ابعدك ايها المسيحي الذي تنشأ على بغض اخيك المسلم عن جادة الدين القويم دين المحبة والسلام . ألست انت والمسلم واليهودي من طينة واحدة ؟ ألا تضمكم بلاد واحدة ولغة واحدة ودولة واحدة ؟ فما اجدركم ان تعيشوا بالوفاق والالفة وتعملوا معاً على النهوض تشبهاً بالامم الجارية في سبل المدنية والعمران

ربوا اولادكم على احترام العمل والعاملين " (١) لانهُ قد مضى الزمن الذي كان الشرقي يعد الصناعة فيهِ عاراً وصغاراً ويترفع عن مخالطة صناع بلادهِ ازدراء واحتقاراً واصبح عقلاء الشرقيين يقدرون الصناعة قدرها عملاً منهم بفعلها في ترقية شؤون الاوربيين وبفضلها في رفاهة عيش المتمدنين فلا يفرقون اليوم بين ابن الحائك وابن الملك "

ليمر الواحد منا بالفاعل الذي يتصبب العرق من وجههِ ويحييهِ بقولهِ الله يعطيك العافية ليخاطبهُ بنظرهِ قائلاً انت الذي تعلمني مثالة لا تعلمنيها الكتب ولا اراها في غرفة الدرس بمظهرها الطبيعي انت تعلمني شرف العمل والامانة فيهِ . انت تذكرني بقولهم الكتاب بعرق وجهك تأكل خبزك

نعم ليعلم الناس اجمع ان المدرسة مهما زرعت في رأس التلميذ من المعارف والاختبارات فهي لا تخلط معها بزور كره العمل والاحتراف . المدرسة لا تربي التلميذ على التأنق الزائد في اللباس وحمل العصا الافرنجية وتجعل منهُ صورة مكتوباً على جبينها انا ابن مدرسة اعرفوني من هيئتي

نددوا ايها المربون بعادة التشبه بما لا طاقة لنابهِ واغرسوا في عقول الذين تربونهم ان جمال النفس يستغني عن جمال الثياب وان افضل طريق للحياة الحسنة هو العمل الحسن

ربوهم على سعة النظر والمبادىء الحرة . على حسن استخدام الوقت والدقة في الاعمال

انزعوا عبارات " مايسايل وما عليش ومشي الحال " من دفتر التربية لانها آفة كبيرة في الشرق

واعلموا ان الانسانية الحقة لا تولد مع الانسان بل تنمو فيهِ ويتجسد عليها ويتدرب على القيام بمطالبها . هذا هو سرمي التربية وعمل المربين فالسلام على التربية والسلام على المربين

بولس الخولي

---

(١) مقتطف الجزء السادس صفحة ٤٧٥